ميزانيتنا القومية

تدعو إلى الأمل والتفاؤل

بقلم الأستاذ سيد قطب

نشرت صحيفة البلاغ فى العهد الأخير ترجمة مسلسلة لكتاب فرنسى عنوانه "حقيقة النكبة الفرنسية" . وقد لفت نظرى فيه، وهو يصف الحالة التى كانت عليها فرنسا قبل الهزيمة ، ويعلل أسباب الكارثة التى لم يكن أشد الناس تشاؤما يتوقعها لهذه الدولة ... لفت نظرى أن حالة نفسية خاصة كانت تستولى على بيتان وفيجان وبدوان وغيرهم من رجالات الدولة تتلخص فى اعتقادهم أن كل شىء فى فرنسا قد فسد ، وأن كيانها الخلقى والدينى قد انحل ، وأن الكارثة وحدها هى التى تنهضها من كبوتها وتطهر فؤادها من الأدران ، حتى لقد بات هذا الفريق وهو يتمنى الهزيمة الساحقة القاصمة ، ويفرق من النصر خشية أن تظل فرنسا على ما هى فيه من الاستهتار والعكوف على اللذات .

وبينما كان "بول رينو" رئيس الوزارة ومسيو "ماندل" وزير الداخلية يحاولان استنهاض العزائم ويعقدان مع بريطانيا اتفاقية بعدم عقد صلح منفرد ... بينما كان "بول رينو" يلقى خطبته المفزعة ويصرخ فيها : "إننى أومن بالمعجزات لأننى أؤمن بفرنسا" وبينما كان "ماندل" يؤكد فى أحاديثه "أن فرنسا لن تخون عهدها وان تنكث باتفاقيتها"... كان "فيجان" و"بيتان" ومن معهما يبثون روح الهزيمة ، ويشيعون الشعور بالضعف ، ويفرضون الكارثة على أممهم فرضا تحت تأثير تلك الحالة النفسية التى أشرت إليها آنفا .

وقد أخذت خطب "بيتان" الشيخ منذ ذلك الحين تنضح بهذه الروح ، لقد اعتقد أن الله كتب على فرنسا الهزيمة فى هذه المرة لتذوق العذاب وتجرع الغصص فتطهر روحها ويستيقظ ضميرها ، وكان قد تشاءم كل التشاؤم مما هى فيه ويئس من صلاحها عن غير هذا الطريق الأليم ؛ فلما وقعت الكارثة بالفعل بعد أن عمل لها هو والقائد العام للجيش الفرنسى أخذ يلقى تصريحاته وخطبه ويضمنها مواعظه وحكمه ، وانقلب واعظا فى كنيسة لا رئيسا للدولة . ويخيل إلى بل إننى لأكاد أعتقد أنه استراح واطمأن بعد هذه الهزيمة الشنعاء مخلصا فى راحته واطمئنانه ، لعقيدته ولشعبه !

كم فينا اليوم من أمثال بيتان وفيجان ممن يعتقدون كعقيدتهما ويتشاءمون كتشاؤمهما ويتمنون لمصر كارثة قاصمة تطهرها من أدرانها ومفاسدها ، وتردها متدينة متنطسة ، وتعيد عليها ماضيها من التقوى والصلاح ؟

فينا كثيرون جدا، وذلك من أخطر الأمور .

و بعض هؤلاء الذين يجهرون بالتشاؤم من حاضر مصر ومستقبلها، و ييئسون من صلاح حالها إلا عن طريق العذاب والآلام غير مخلصين فيما يجهرون ، ولم تدفعهم إليه فكرة عليا ولا رغبة فى خير البلد ولكنها نقمة على الأمة أو الدولة لأنها لم تحقق لهم مطامع وغايات فردية يرونها كل شيء فى عالمهم الضيق المحصور .

فلعل أحدهم أن يلقاك يتسخط على الشعب والحكومة، و ينثر على سمعك ألفاظ السباب للزمن والكون لأن مغنما شخصيا فاته ، أو لأن مطمعا حقيرا لم يتهيأ له ، أو لأن درجة أو علاوة أو صفقة منعت عنه ... إلى آخر هذه التفاهات .

بل لقد سمعت ساخطا يتسخط لأنه تبع سيدة فى الطريق يعاكسها ، فإذا بآخر من إخوانه يعاكسه فى هذه المعاكسة و يفوت عليه الصيد ! . ولم يفته أن يعد هذا من انقلاب الزمان وسوء النظام، ودلائل الانحطاط فى الأمة، وأن يتنبأ لها بالويل والثبور كى يتصلح الحال و يستقيم المآل ! ! !

وأمثال هؤلاء لا يستحقون الحديث، ولكن الشيء الخطر أن بجوارهم جماعة مخلصة من الساخطين المتشائمين على ما فى هذه الأمة من عيوب حقيقية ونقائص واقعة ، غير أنهم متحمسون فى رغبتهم الإصلاح المعجل ، شديدو الحساسية بالعيوب والنقائص . وهؤلاء تدفعهم شدة حساسيتهم وحرارة حماستهم إلى تجسيم العيوب وتضخيمها كما تدفعهم شدة الرغبة فى الإصلاح السريع، الى إنكار الإصلاحات البطيئة واليأس من جدواها فيرسلون صيحات الفزع والتشاؤم و يخلقون حولهم حالة نفسية كالحالة التى أودت بفرنسا .

فأنت لا تفتأ تسمع أن الكيان الخلقى للأمة قد تحطم وانهار، فالشبان والفتيات والرجال والنساء يعيشون فى بوهيمية لا تفيق ، واستهتار لا يتورع ؛ وقد فسدت البيوت وتقوضت أسسها وانتهكت حرماتها وأخل فيها كل حرام ، وها هى ذى البلاجات تعج بالجسوم الرخيصة والحفلات تنضح بالخزى والإثم والمواخير تقذف بالرجس والفضيحة ، فلم يبق إلا أن تحل بهذه الأمة كارثة قاصمة كى تحيق من هذا الخمار وتثوب إلى الرشد والصواب !

وأنت لا تفتأ تسمع أن المحسوبية تفسد كل أعمال الدولة وتمشى فى كل مرافق الأمة. و يبالغ المتشائمون فلا يكون ركنا واحدا ولا شخصية واحدة لا تنالها الريبة من هذه الناحية ولا ترتفع فوق مستوى الشبهات، فلا بد إذن من كارثة قاصمة تأكل الأخضر واليابس وتحطم هذه النظم الفاسدة وترد الى الأعمال سيرتها النظيفة !

وأنت لا تفتأ تسمع التهما والتشنيعات تكال كيلا للزعماء ورجال الحركة الوطنية ورجال المال والأعمال وكل شخصية بارزة أو رأس كبير ، بحيث تعتقد أن هؤلاء جميعا تجار مرتزقون مرتشون موبوءو الخلق والضمير ، فاسدو النية والسريرة ، مشوهو العرض والشرف... فلا بد إذن من كارثة قاصمة تعصف بهؤلاء جميعا، وتنبت للامة غيرهم نباتا طيبا !

فإذا فرغت من هذا كله فأنت أمام اتهام لكل شيء مصرى... للبضاعة المصرية وللدواء المصرى ولبيوت العمل المصرية ، وللاستعداد العقلى والعلمى كذلك . فلا ثقة ولا أمل ولا إيثار لهذه "المصريات" كلها على نظائرها الأجنبية ... ثم — مع ذلك — شكوى من هذه الحالة نفسها ونعى على المصريين أنهم لايثقون بالمصريين ؟

* * *

كثير مما يقال صحيح ولا ريب ، ولكن كان لا بد أن يكون ! فقد توالت على مصر أحداث وعهود لو توالت على غيرها لذهبت من الوجود ، ولكن مصر صمدت لها ، واحتفظت مع ذلك بكثير من فضائلها ، وهى فضائل أساسية ثابتة عميقة توحى بالأمل وتشعر بالرجاء .

وكثير ممن يسخطون ويتبرمون مخلصون — كما قلت — فى سخطهم وتبرمهم ، وللسخط قيمته فى الإصلاح بل هو طريق الإصلاح ، ولكنهم مبالغون فى هذا السخط ، متحمسون فى تصوير النقص ، مخطئون فى التشاؤم واليأس .

ومن واجب المصلح أن يسخط على المفاسد ويثور على النقائص . ولكن من واجبه كذلك أن تمتلئ نفسه بالرجاء فى الإصلاح ، ويفيض صدره بالثقة فى النهوض ، فيهب الظهور بسياط السخط ولكن يلوح للأنظار بحلوى الأمل . خيفة أن تشيع فى النفوس روح اليأس فتفهم — كما فهم بعض زعماء فرنسا — أن الكارثة وحدها هى سبيل الخلاص !

* * *

ومن طبيعة النفس الإنسانية أن تحن إلى الماضى وأن تنسى معايبه وتتصوره فى صورة جميلة ، وأن تتطلع إلى المستقبل وترجو فيه الآمال البعيدة . أما الحاضر الماثل بكل ما فيه من خير وشر ، فمن عادة النفس أن تنظر إليه بعين أخرى وأن تجسم نقائصه وتنسى محاسنه ، وتنعى عليه هذه النقائص المجسمة ولا سيما من رجال الجيل الماضى وسياداته ، الذين يجدون أنفسهم فى جو غير جوهم ، وفى عهد تفلت السلطة من أيديهم فيه لتنتقل إلى أيدى الجيل الجديد !

وكثيرا ما نسمع أن الزمن قد فسد ، وأن الأمة تتأخر ولا تتقدم ، وأنها تفقد فضائلها شيئا فشيئا ، وأن الخير والبركة يضمحلان رويدا رويدا ... إلى آخر عبارات التسخط على الحاضر والترحم على الماضى .

فهل هذا كله صحيح ؟

لا شك فى أننا فى صراعنا مع الزمن والحياة ، وفى تأثرنا بتقلبات الاجتماع والسياسة قد خسرنا فى المعركة ما لا بد من خسارته ، ولكننا كذلك كسبنا ، ومن الإنصاف ونحن

نرسم صورة عامة لموقفنا أن نضع الأرباح بجوار الخسائر، وأن نقدم ميزانيتنا لأنفسنا على هذا الأساس .

ولنذكر لذلك بعض الأمثال فى نصف قرن من الزمان .

* * *

نبدأ بموقفنا الوطنى والسياسى . ومما لا شك فيه أننا كسبنا فى هذا الموقف كثيرا، فانتقلنا من حالة ذهول وطنى إلى حالة يقظة قومية مهما قيل فيها من العيوب فهى عيوب اليقظة، وانتقلنا من وضع سياسى معين تحت الاحتلال والحماية الى وضع سياسى آخر معترف لنا فيه بالاستقلال والسيادة، ومهما قيل فى حقيقة هذا الاستقلال فهو استقلال، والزمن كفيل بتثبيته وحماية مظاهره ودعائمه .

ومن الغبن لأنفسنا، بل من الجريمة، أن نطلق ألسنتنا بإشاعات مشكوك فيها على الأقل، تزعزع من قيمة هذا الاستقلال فى نفوس الأمة وتقعدها عن الدفاع عنه، وتشعرها أن فقده لا يعد خسارة حقيقية، فمثل هذه الروح تدعو إلى اليأس والاستسلام بإزاء ما يهدد كياننا من الأخطار، فوق ما تبثه من روح القلق العام فى ظروف نحن أحوج فيها الى الاستقرار .

والذين يطلقون هذه الإشاعات، و يصورون موقفنا السياسى العام تصويرا قاتما . يدفعون بنا إلى هذا المصير مهما افترضنا فى نفوسهم من الإخلاص، وفى عقيدتهم من النقاء فكيف تكون الحال إذا كانوا ينظرون للمسألة من وجهة شخصية، و يعملون لمغانم وأرباح عن هذا الطريق الشاذ ؟

* * *

ثم لنتناول موقفنا الاقتصادى والمالى بعد ذلك . فنحن نشكو من الفقر المدقع الذى يخيم على ربوع البلاد، ونشكو من سوء توزيع الثروة بين الأفراد . وهذا وذلك صحيحان ولا بد من العمل السريع الحاسم لعلاجهما .

ولكن هذا ليس معناه أننا اليوم فى موقف أسوأ مما كنا عليه منذ نصف قرن، ولسنا نسير القهقرى فى هذا المجال، بل نحن على الرغم من كل شىء نسير إلى الأمام، ولكن بخطوات بطيئة يجب استحثاثها والإسراع فيها مع الأمل والرجاء .

فقبل نصف قرن كان الفلاح يعانى ما يعانيه اليوم من فقر أسود كالح، ولكنه كان يعانى بجانبه السخرة للمشروعات العامة والجلد بالسياط لأداء الضرائب التى لا نظام لها ولا ميعاد، وكان العامل يجهل كل حقوقه ولا يهم أحد أن يعترف له بها .

فها نحن أولاء قد قطعنا مرحلة كبيرة بخطواتنا البطيئة، فالضريبة منظمة و إن احتاجت إلى التطور والتعديل، والسخرة ممنوعة، وللعامل حقوق معترف بها و إن لم تكن كاملة، وما هى إلا أن تثمر الدعوات الجديدة ثمرتها فى كل ذلك حتى يتبين الكسب على حقيقته ونعرف مقدار ما سرنا إلى الأمام .

فاذا نظرنا إلى الجانب الاجتماعى ، هالنا لأول مرة ما لحق كيانه من الاضطراب وقواعده من الاهتزاز فى النواحى الخلقية على الخصوص. ولكن هذا الاضطراب على ما فيه من شر ، لم يكن شرا كله .

وهو على أية حال لم يكن خاصا بمصر حتى نفقد ثقتنا بها وننفض أيدينا من إصلاحها ، فلقد أصيب الكيان الاجتماعى بهزة عنيفة فى العالم كله لحقنا صداها بعدا لحرب العظمى . ونحن نجتاز الآن فترة انتقال ولا بد فيها من تضحيات ، ولا بدأن يقع الكثيرون والكثيرات صرعى فى زحمتها ، ولكنها تضحيات لن تذهب هباء .

وقد كنت معنيا على الدوام بمراقبة خطوات هذه الهزة فى كياننا . وأعتقد أنها بلغت ذروتها حوالى سنة ١٩٣٣ ثم أخذت حدتها فى التناقص ، ونحن اليوم أقرب إلى الصحة مما كنا فى ذلك العام .

فتميع الشبان وتخنثهم وبعدهم عن الاشتغال بالمسائل العامة وانطواؤهم على نفوسهم الصغيرة . كل أولئك كان أوضح ما يكون فى الفترة التى تلت ركود الثورة من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٣ . وهى فترة قصيرة جدا كلمح البصر . وقد أخذت حدة هذه الحالة تفتر كما قلت منذ استعاد الشباب بعض وثباته فى مشروع القرش وعيد الاقتصاد القومى وثورة سنة ١٩٣٥ وفيها قبس من الثورة الكبرى. ثم تلا ذلك ما نراه اليوم من اشتغال الشبان والشوب بالإصلاح الاجتماعى و بالمشروعات الاقتصادية ، ومن اهتداء شباب الجيل إلى كثير من رجولته فى هذه الخدمات العامة .

وليست اليقظة الاجتماعية التى نحس تيارها فى كل الأوساط بالمكسب اليسير الذى يجوز إغفاله فى الحساب العام .

ومهما نبتئس لحال الفلاح والعامل ، فإن لنا أن نستبشر بالاهتمام البادى بشأنهما فى عالم الأفكار والأعمال ، فمنذا الذى كان ينتظر أن يتصدى كبار رجال المال والأعمال كالدولة صدقى باشا وسعادة أحمد عبود باشا للحديث عن الغلاء المصطنع وما يلقاه الفقراء من جرائه فى المدينة والريف .

لقد قرأت فى حماسة وسرور كلمة عبود باشا بالأهرام تلك التى يقول فيها :

"أود أن أنبه على صفحات "الأهرام" الغراء الى الضائقة المزعجة — ولا أكون مسرفا إذا قلت الخطرة — فى الريف وقد شاهدت مظاهرها المحزنة بعينى رأسى فى أيام العيد القليلة التى كان فى مرجوى أن أقضيها فى " أرمنت " للاستجمام والراحة .

"لقد كنت — ككثيرين غيرى من سكان الحواضر — أغدو وأروح من بيتى الى عملى غير مشاهد شيئا من آيات الضنك والفاقة المدقعة التى يعانيها سواد الأمة — وكنت ربما خطر لى ، أن فيما تكتبه وتصفه صحفنا بعض المبالغة . فلما صرت فى الريف ونظرت بعينى وسمعت بأذنى ، هالنى ما رأيت .

"رأيت شبانا فى ريعان الشباب يسقطون مغشيا عليهم من الجوع .

ورأيت الذى يقتنى بضع دجاجات ينتفع ببيضها يحملها الى السوق و يبيعها بيع المضطر بالوكس والبخس ليعود بدراهم قليلة يشترى بها بعض الذرة له ولعياله .

"ورأيت طالب الذرة يحتال لجمع ثمنها المقرر فى التسعيرة ثم يعييه الحصول عليها بعد الذى تكلف من العناء والتضحية، لأن الذى عنده الذرة يأبى إلا أن يبيعها بثمن فاحش لاتقره — ولا يمكن أن تقره — أية تسعيرة .

"والخلاصة — بلا حاجة إلى الإفاضة — أن الجوع فاش فى الأقاليم وأنه يستوجب أن تتخذ الحكومة من التدابير أحزمها وأسرعها وأولاها بأن تجنى الأمة ثمرته المنشودة .

"ولست ممن يجمح بهم الخيال، ولكنى ممن يستطيعون أن يروا نهاية الأمور من بدايتها. و إنى أقرر بأعلى صوتى أن حالة الأرياف تستوجب المبادرة إلى اتخاذ إجراءات تنطوى على منتهى الحزم و إلا ساءت العاقبة .

" إن الفلاح يعمل و يكد — إذا وجد العمل — ولا يجزى على عمله إلا اليسير الذى لا يكفيه وذويه للحصول على الكفاف فى هذه الأيام .

"ودخله كله — اذا عمل فى أيام السنة كلها — لا يكفيه لطعامه ، فضلا عن غيره فى الظروف الحاضرة .

"وقد أعملت الفكر وأنعمت النظر ، فلم أر علاجا يجدى فى هذه الظروف المستعصية إلا أن تتولى الحكومة أمر القوت فتستولى على مواده الضرورية وتتولى هى بواسطة ممثليها — لا بواسطة التجار — توزيعها على الأهالى ؛ وممثلوها كثيرون فى عواصم المديريات والمراكز والقرى .

" وحتى هذا لا يكفى ، فإن كل مزيته أن تباع مواد القوت بالأسعار المقررة ولكن الأسعار تفوق طاقة السواد الأعظم فى الأرياف . ولهذا أعود فأكرر اقتراحى أن تبيع الحكومة مواد الطعام للأهالى بأقل من الأثمان المقررة فى التسعيرة — أى بالأثمان التى تدخل فى طاقة الشعب .

"وقد يسأل القارئ عن الفرق من يدفعه ، وجوابى أن التضحية لازمة فى مثل هذه الأيام العصيبة ، وأن الحكومة ينبغى أن تحمل بعض الفرق اذا لم تستطع أن تحمله كله ، وعلى الأغنياء والموسرين من أبناء مصر المتجين أن يتحملوا نصيبهم من الغرم فى سبيل الأمة وأمنها واستقامة احوالها .

"واذا كان هناك من لا يسهل عليه أن يدعى إلى التضحية فى سبيل إطعام الأمة ووقايتها غوائل الجوع ، فإنى أقول له إن من حماية ماله أن يضحى بما يطمع فيه من ربح وأنه يفتدى بالقليل الذى يعوض ، الكثير الذى لا يعوض .

"هذا اقتراحي على الحكومة والموسرين وأنا أناشدهم جميعا، بإخلاص و إلحاح، أن يتعاونوا على التخفيف عن الأمة . وأ كتفى بهذا القدر من التنبيه — وقد كان حسبهم منها ما آثره جلالة الملك في رمضان من إطعام الفقراء في كل إقليم وفي العدول عن دعوة الوجهاء والأعيان والكبراء الذين لا ينقصهم الطعام" .

ومهما قيل في بواعث مثل هذه الصيحة ، من أنها تخدير للأعصاب من رجال المال حتى تفهم الطبقات الفقيرة أنهم معنيون بشأنها فلا تنهض هي للطالبة بحقها ولا تيأس من إنصافها — مهما قال سيئو الظن مثل هذا القول، فإن لنا أن نسجل هذا الانتصار في ميدان الخدمة الاجتماعية وأن ننظر إليه بعين التفاؤل ونعده خطوة كبيرة في سبيل الإصلاح الاجتماعي المنشود .

***

وأما في الناحية الصحية فقد تقدمنا تقدما يذكر في جانب العلاج و إن كان يفسد علينا هذا التقدم تقصيرنا في جانب الوقاية ، وقد عمل نظام الري الدائم عمله السيئ في نشر الأمراض المتوطنة و إضعاف تربة الأرض على السواء ؛ لأننا لم نحتط له بنظام الصرف المناسب و بالأعمال الصحية الواقية من العدوى للفلاحين ، ولكن ها نحن أولاء قد تنبهنا أخيرا ، ولا تزال الأبحاث تحاول الاهتداء إلى أفضل طرق الوقاية للفلاح وللأرض جميعا .

وأما النهضة الأدبية والعلمية فما لا شك فيه أنها سارت بخطوات سريعة . ومهما يكن في بنائها من الخلل والنقص، فلا سبيل للظن بأننا نتأخر ولا نتقدم في كل اتجاه . ولا حاجة هنا لضرب الأمثال .

***

والخلاصة أن ميزانيتنا القومية والاجتماعية والعامية لا تدعو إلى اليأس والتشاؤم، بل هي على الضد تدعو إلى الأمل والتفاؤل ، ومن واجبنا ولا ريب أن نكشف عن مواطن النقص وأن ندعو في كل يوم إلى الكمال، وأن نتعلم السخط على الواقع وأن نتطلع إلى مستقبل جديد .

ولكن ينبغي أن يتم ذلك كله دون المساس بإيماننا الوثيق بمصر و بما فيها من عناصر الخير والقوة ، ومن بذور الحق والجمال ، ومن دعائم الإنشاء والبناء .

فتصوير الواقع باللون القاتم و إشاعة اليأس في النفوس من كل إصلاح عمل خطر له نتائجه الوخيمة، وأمامنا مثل من هذه النتائج في فرنسا المسكينة التي ابتليت في محنتها برجال — مهما قيل في إخلاصهم — فإنهم فقدوا إيمانهم بوطنهم وضعف رجاؤهم فيه ، فتمنوا له الكوارث على أمل أن تصبح عاملا من عوامل البعث والإنهاض ، وكانت النهاية هي هذه المأساة المحزنة الأليمة "

سيد قطب